بحث عام | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 05 سبتمبر 2017

في غزارة الكتابة الأنثروبولوجية:

نحو قراءة استقصائيّة لميراث جاك بيرك المعرفيّ، وأهميّته في فهم الإنسان المغاربيّ

مختار مروفل
باحث جزائري

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

الملخّص:

إنّ التّعرّف إلى المنطقة المغاربيّة في مسيرة بيرك الذّاتيّة والمعرفيّة يعدّ أمرًا مسلَّمًا به، لا غرو في ذلك؛ فالرّجل يعد شاهدًا مرجعيًّا، ومعلّمًا رئيسًا لكلّ من يود التّعرّف إلى التّشكيلات «القبليّة» المحليّة، الّتي امتلكت فضاء الشّمال الإفريقيّ من جهة، أو دراسة التّراث الإيديولوجيّ والفكريّ للفضاء المغاربيّ الّذي نشأ منذ مطلع المرحلة الكولونياليّة وبعد الاستقلال من جهة أخرى، فبيرك يعدّ مجددًا متميّزًا ومطّلعًا واسع المعارف في هذا المجال.

من هنا؛ فإنّ ورقتنا ستُعنى بهذين البعدين الأساسيّين؛ اللّذَين يمثّلان - في اعتقادنا - محطّتين محوريّتين من تراث ج. بيرك المتشعّب، متسائلين - في ذلك - بسؤالين رئيسَين: كيف يمكننا أن نستفيد - اليوم - من معرفة الرّجل الخاصّة بالتّشكيلات المجتمعيّة الّتي تكوّن منها المغرب الكبير؟ وكيف نقرأ ونقيّم شهادة بيرك عن ذلك التّراث الغزير المكوّن من الوثائق الأثنولوجيّة والجغرافيّة والموسوعيّة عامّة؟ نودّ أن نقارب هذا الموضوع بالطّريقة الاستقصائيّة النّصيّة؛ لأنّ إنتاج بيرك الواسع الثّراء يستحقّ منا بالفعل - حسب ما نعتقد - هذا النّوع من العمل، وذلك من أجل ضبط بوصلته وتحديد معالمه، لنقف - في البداية - عند مسار بيرك الذّاتيّ والعلميّ؛ فذلك سيفيدنا كثيرًا في بحثنا عن الأجوبة المطلوب التّوصّل إليها في هذه الورقة.

تقديم:

إنّه من الضّروريّ بالنّسبة إلى ملاحظ الشّأن المغاربيّ والدّارس لمورفولوجيّته الاجتماعيّة: أن يلج هذا الفضاء عبر بوابة جاك بيرك الأنثروبولوجيّة؛ فالأعمال الّتي خلّفها الرّجل في هذا المقام؛ سواء كانت ذات فائدة خالصة للمغرب الكبير، أو كانت رسالة موجّهة إلى أوربا عن تميّز ذلك الفضاء الشّاسع واختلافه عن ربوعها؛ فهي - على كلّ حال - جعلت مِن المغرب الكبير مرجعًا رئيسًا للدّراسات الأنثروبولوجيّة في الجامعات ومراكز البحث في الغرب ككلّ.

إنّ المتتبّع لسيرة بيرك الذّاتيّة والموضوعيّة (1910 - 1995م)، وما تمخّض عنها من معارف ثريّة على شتّى الصّعد، شملت كلًّا من المدن والإسلام المغاربيّ وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا الحضريّة، يدرك بحقّ أهميّة تلك الشّخصيّة، وما لها من أفضال على معارف الأنثروبولوجيا والسّوسيولوجيا الّتي تخصّ الشّمال الإفريقيّ بوجه خاصّ.

إنّ بيرك ابن فرندة (الجزائر)؛ الّذي أوكله أبوه - منذ صغره - إلى أحد شيوخ القبائل لمدّة ستّة أشهر، حتّى يعتاد حياة البداوة، ثمّ قضى - بعد ذلك - أزيد من عشرين سنة في المغرب الأقصى، مسؤولًا عن شؤون الأهالي، ومراكمته - بموجب ذلك - للخبرة والتّجربة الميدانيّتين اللّتين تشكّلتا لديه أثناء تفاعله اليوميّ، وصلته المباشرة بالأهالي، جعل منه - من وجهة نظرنا - رجل المغرب الأوّل في القرن المنصرم، وذلك من حيث تبنّي المقاربات العلميّة الصّارمة لدراسة المنطقة وتحليل نسوجها ونصوصها.

لقد بذل بيرك - في هذا السّبيل - جهودًا مضنية كبيرة، ألغت أمامه الكثير من الحواجز والفواصل الّتي - غالبًا - ما تقف حجرة عثرة أمام الباحث الأنثروبولوجيّ الّذي يودّ الاقتراب بعمق من مبحوثيه؛ فهو يقول عن علاقته باللّهجات الدّارجة بالمنطقة: «لقد تعلّمت اللّغة المغاربيّة مثلما تعلّمت لغتي الأمّ، هذا على الرغم من أنّي كنت أقلّ تحكّمًا فيها مقارنة بنظرائي المغاربة، لكن - اليوم - أستطيع أن أجزم وأقول: «إنّني أتحكّم بجميع اللّهجات، والكلّ أصبح يفهمني عندما أتكلّم معه» (بتصرّف)[1]، وعن اللّغة العربيّة يقول: «هي لغتي الثّانية»، لقد جسّر ج. بيرك - بذلك - المسافة بينه وبين الأهالي؛ فصار - اليوم - واحدًا منهم، لا يتميّز عنهم في شيء، يشاركهم تفاصيل حياتهم اليوميّة، ويختبر - عن كثب - عاداتهم وتقاليدهم ومنتجاتهم المختلفة، وقد استطاع الرّجل - بتلك الحنكة - سبر الأغوار والأعماق وملامسة الجذور والبواطن الّتي تتشكّل منها البنية المجتمعيّة للمغاربة، بما في ذلك الدّلالات والثّقافات المكوّنة للمنطق وللذّهنيّات العامّة.

1- Ben Salem .L ; Jaque Berque (1910-1995) cahiers de Tunisie N: 1653 trim.1993,pp.12-13.

وبناء عليه؛ فإنّ التّعرّف على المنطقة المغاربيّة من خلال مسيرة بيرك الذاتيّة والمعرفيّة، يعد أمرًا مسلّمًا به، لا غرو في ذلك؛ فالرّجل يعدّ شاهدًا مرجعيًا ومعلّمًا رئيسًا لكلّ من يودّ التّعرّف إلى التّشكيلات «القبليّة» المحلّيّة، الّتي امتلكت فضاء الشّمال الإفريقيّ من جهة، أو دراسة التّراث الإيديولوجيّ والفكريّ للفضاء المغاربيّ الّذي نشأ منذ مطلع المرحلة الكولونياليّة، وبعد الاستقلال من جهة أخرى، فبيرك يعد مجدّدًا متميّزًا ومطّلعًا واسع المعارف في هذا المجال.

من هنا؛ فإنّ ورقتنا ستُعنى بهذين البعدين الأساسيّين اللّذين يمثّلان - في اعتقادنا - محطّتين محوريّتين من تراث ج. بيرك المتشعّب، متسائلين في ذلك بسؤالين رئيسين: كيف يمكننا أن نستفيد - اليوم - من معرفة الرّجل الخاصّة بالتّشكيلات المجتمعيّة الّتي تكوّن منها المغرب الكبير؟ وكيف نقرأ ونقيم شهادة بيرك عن ذلك التّراث الغزير المكوّن من الوثائق الإثنولوجيّة والجغرافيّة والموسوعيّة بشكل عامّ؟ إنّنا نودّ أن نقارب هذا الموضوع بالطّريقة الاستقصائيّة النّصيّة، ذلك أنّ إنتاج بيرك الواسع الثّراء يستحقّ منا بالفعل - في اعتقادنا - هذا النّوع من العمل، وذلك من أجل ضبط بوصلته وتحديد معالمه، لنقف - في البداية - عند مسار بيرك الذّاتيّ والعلميّ؛ فإنّ ذلك سيفيدنا كثيرًا في بحثنا عن الأجوبة المطلوب التّوصّل إليها في هذه الورقة.

نبذة عن حياة جاك بيرك المهنيّة والفكريّة:

جاك بيرك: هو من مواليد مدينة فرندة الجزائريّة، في سنة (1910م)، وكان والده (أوجستين بيرك) يعمل فيها مسؤولًا إداريًا، بعد حصوله - في سنة (1936م) - على شهادة الأدب الكلاسيكيّ، رفض بيرك العمل بالتّدريس، وفضّل الذّهاب إلى الجزائر، مقاطعًا بذلك دراسته الّتي ابتدئها بعد عام ونصف في السّربون، بعث به والده إلى الهضاب العليا بمنطقة الحضنة ليعمل ضمن الإدارة الاستعماريّة، واستغلّ بيرك هذه الوظيفة ليجمع من خلالها المادّة الأساسيّة الّتي سيكتب منها أوّل مقال له؛ الّذي نشره - لاحقًا - في المجلّة الإفريقيّة، في سنة (1934م)، وفي غمار عمله مراقبًا لدى محاكم الأهالي، وقد كان عملًا يحبّذه بيرك ويستمتع به، نشر - لأوّل مرّة - سنة (1936م) كرّاسة بعنوان:

«études des contrats nord - africains»، وقد استمرّ هذا العمل المزدوج (الإداريّ والعلميّ) معه مدّة عشرين عامًا، فأصبح - بذلك - رجل مكاتب العرب الّتي لم يكن - بالمناسبة - يطمئن لها كثيرًا، وذلك بسبب نهجها السّكولاستيكيّ الأكاديميّ المتكلّف؛ فهو رجل يعتزّ بنفسه، ويفضّل الحياة المعرفيّة الحرّة، قال عنه زميله (G.H. Bousquet): «إنّ بيرك رجل يحبّ مهنته، ولا يودّ الاشتغال بالتّعليم الجامعيّ»

(بتصرّف)[2]، فعمله في الرّقابة المدنيّة تحت الانتداب الفرنسيّ في المغرب، كان جدّ مواتٍ له لإجراء الملاحظات واستجماع المواد الأنثروبولوجيّة الّتي لم تكن متاحة لكثير من الإثنولوجيّين في وقته، ومنذ ذلك الحين وبيرك يعمل بتفانٍ لإنجاز مشروعه الخاصّ في مجال أنثروبولوجيا الحقوق؛ الّذي شمل العقود التّجاريّة والرّعويّة في المغرب[3]، وقد تأثّر - في هذا النّهج - بأستاذه (Louis Gernet)؛ الّذي كان يتابع - بانتظام - محاضراته في كلّيّة الآداب في الجزائر العاصمة.

لقد أنضجت التّجربة المهنيّة لديه معرفته التّفصيليّة والعميقة بالأهالي المغاربة؛ فهو - كما أسلفنا - مراقب المحاكم المدنيّة في المغرب من سنة (1937م) إلى سنة (1936م)، ثمّ نائب بلديّ (1937 - 1940م)، والتحق بعدها بالخدمة السّياسيّة لحماية الرّباط (1943 - 1945م)، ثم مدير مكتب الدّراسات (1945 - 1947م)، وذلك قبل أن يعزل بسبب كتاباته، وبسبب - أيضًا - الإصلاحات الّتي أدخلها على الرّيف المغربيّ، وبعدما ترك وظيفته سنة (1953م)، استقرّ به المقام في إحدى المقاطعات المجهولة بالأطلس الكبير؛ حيث انكبّ بيرك على كتابة أطروحته المعروفة باسم «Les Structures Sociales du Haut - Atlas» سنة (1955م)، لقد فتح له هذا الإنجاز أبواب الكوليج دو فرانس؛ الّذي أصبح يرأس فيه كرسيّ التّاريخ الاجتماعيّ للإسلام المعاصر لمدّة ربع قرن، كما كان يشغل - في الوقت ذاته - منصب مدير الدّراسات بالمدرسة التطبيقيّة للدّراسات العليا، أين أشرف على العديد من رسائل الدكتوراه، وبعد عامين من عمله في كوليج دو فرانس، عيّن بيرك خبيرًا تربويًا لدى (UNESCO) في كلّ من مصر ولبنان، وقد تقاعد بيرك عن عمله سنة (1980ن)، ليجد نفسه - بعد ذلك - مستشارًا لوزارة التربيّة الوطنيّة[4]، لكن بالرغم من ذلك؛ فإنّ تلك الوظائف المتراكمة الكثيرة لم تثنيه عن إنجاز مشروعه الكبير، المتمثّل في ترجمة معاني القرآن الكريم، الّذي بدأه بيرك سنة (1982م)، وانتهى منه سنة (1995م)؛ أي قبيل وفاته مباشرة؛ إذ وافته المنيّة في يوم (27/ حزيران/ 1995م)، وذلك إثر أزمة قلبيّة ألمّت به وهو جالس يعمل داخل مكتبته.

إنّ تراث بيرك الفكريّ الثّريّ الّذي بدأ بالملاحظة الأنثروبولوجيّة والعمل الميدانيّ وإنجاز الدّكتوراه، ثم العمل الأكاديميّ في كلّ من الكوليج دو فرونس، وفي (EPHE) إلى غاية سبعينيات القرن الماضي، واهتماماته - في آخر المطاف - بالثّقافة الكلاسيكيّة، وبالأخصّ الإسلام، وترجمة معاني القرآن الكريم، إنّما

2- حسب رواية بوسكيه؛ فإنّ بيرك قد كان مرحّبًا به من قبل حاكميه ومحكوميه على حدّ سواء، لكنّ هذا الأمر نفاه بيرك مؤكّدًا- عكس ذلك- أنّه كان منذ سنة (1944م) ضحيّة سخط وامتعاض من قبل مسؤوليه، الشّيء الّذي تسبّب في نفيه إلى أعالي الأطلس الكبير.

J.Berque, Mémoire des deux rives, Paris, Seuil. p.114

3- كان بيرك متأثرًا بكتابات أستاذه (Louis Gernet)، خاصّة، في أطروحته التي أنجزها سنة (1917م) التي تحمل عنوان: «Le développement de la pensée juridique et morale en Grèc»؛ حيث اقتبس منها بيرك مفهوم الماقبل القانون «prédroit»؛ الّذي أعاد توظيفه في أطروحته الخاصّة بالبنى الاجتماعيّة في الأطلس الكبير.

4- ما بين سنة (1984م) وسنة (1985): أوكل (J .-P Chevénement)- الّذي كانت تجمعه ببيرك قرابة دم- مهمّة البحث في مكانة أبناء المهاجرين ضمن النظام التربويّ، وقبل بيرك- بعد تقاعده من عمله في المغرب- بتلك المهمّة، كما قبل قبلها العمل مستشارًا للوزير، بين سنة (1981م) وسنة (1982م)، ذات الوزير الّذي تولّى حقيبة البحث العلميّ، حمل بيرك بعدها مسؤوليّة التّعاون العلميّ مع العالم الثّالث.

يدلّ على أنّ ذلك التّرتيب - خصوصًا - في مرحلته الأخيرة، قد ارتبط بخلفيّة جدّ عميقة ذات بعد وجدانيّ، وقد حزّ في نفس الرّجل كثيرًا إغفاله دور جماعة الإخوان المسلمين في مصر، وعدم تقدير مكانتها في كتابه الّذي ألّفه سنة (1967م)، ويحمل عنوان: «Egypte: Impérialisme et révolution»، فقد عبّر بيرك - بوضوح - عن ذلك النّدم في مذكّراته الشّخصيّة[5].

في عمله بمكتب العرب:

إنّ مكتب العرب الّذي شغل به بيرك أوّل منصب له كمراقب مدنيّ، لم يغفل أهميّته وقيمته العلميّة، هذا على الرّغم من أهدافه الاستعماريّة ومحدوديّته في مجال التّحقيق؛ فالضّبّاط الشّباب والإداريّين لم يكونوا - حينها - أكثر عمقًا في تحقيقاتهم، ولا في عملهم الميدانيّ، لذا؛ قرّر بيرك أخذ المبادرة بنفسه والبحث عن الحقيقة لوحده[6]، ليشرف - بذلك - بنفسه «على كلّ النّاس، وعلى كلّ شيء»، لقد كرّس بيرك جهودًا مضنية في عمله بهذا المكتب، حتّى أطلق على نفسه ذات مرّة اسم «رجل مكتب العرب»؛ ففي مقال له سنة (1975م)، بعنوان: «Entrée dans le Bureau Arabe» قدّم بيرك شهادة مفصّلة عن ذلك الدّور الّذي تميّز به في مكتب العرب، مقاله المعنون: «خمس وعشرون سنة ومائة من السّوسيولوجيا المغربيّة» سنة (1965م)، لم يغفل - هو الآخر - دور مكاتب العرب في الرّصد والتّوثيق المفصّل لشؤون الأهالي في شتّى المجالات والأصعدة، والّذي تحمّل فيه مهمّة الإشراف على عدد من الملفّات، نذكر منها على وجه الخصوص: ملفّ «الشّكاية»، وملفّ «أعياد العرب»، وملفّ «الحرائق».

للعلم؛ إنّ مهمّة بيرك المدنيّة لم تكن لتتنكر لإطارها العسكريّ الّذي وظّفت فيه، فالشّابّ ذو الخمس والعشرين سنة؛ الّذي كان يجوب على صهوة فرسه أراضي بني مسكين، كان يعمل برفقة فرسان البرانيس الزّرق[7]، فلا شيء يدلّ بذلك على أنّ «رجل مكتب العرب» لم يكن ضابطًا، بدليل أنّه لمّا أزعج مسؤوليه، غضبوا منه ونفوه بأمر عسكريّ إلى إحدى النّقاط المجهولة بأقصى الأطلس، عند هذه المحطّة - بالذّات - يكون الخلاف قد بلغ أوجه بينه وبين الإدارة الاستعماريّة؛ إذ رفض بيرك تلك الأحكام المسبقة الّتي يرتّبها العسكريّين على المدنيّين، وانتقد بشدّة مكتب العرب، على الرّغم من أهميّته، واستبشر باستقلال الفضاء المغاربيّ؛ حيث أعلن في ذلك قائلًا: «إنّ الاستعمار الفرنسيّ قد بلغ مداه، وإنّ من أنكر ذلك عليّ يلقمني اليوم

5- J. Berque, 1989, Mémoires des deux rives, Paris, Seuil. P.182.

6- J. Berque, 1975, «Entrée dans le Bureau arabe» in Nomades Vagabonds, Paris, UGE, 113-139(Causes comm - nes 2, coll. 10/18); repris comme «Premier poste» et «Agir, rêver», in 1989, chapitres 3 & 4. P. 116.

7- Frémeaux Jacques. Missionnaire en burnous bleu. In: Revue du monde musulman et de la Méditerranée, n°83-84, 1997. Enquêtes dans le bibliographie de Jacques Berque - Parcours d'histoire sociale, P p 67 -73, doi: 10.3406/remmm.1997.1772 http: //www.persee.fr/doc/remmm_0997-1327_1997_num_83_1_1772.

بالحجر» (بتصرّف)[8]، لقد أدان بيرك ظلم الأعيان للأهالي ووصفهم بأنّهم قد «التهموا القبيلة»، كما استهجن غطرسة المعمّرين واستغلالهم الفاضح لعمالة الأهالي، كلّ ذلك وبيرك يقاوم ويناور من موقعه كأحد ورثة ضبّاط مكاتب العرب، الّذين عدّوا دمج الأهالي ضمن العدالة الفرنسيّة، وضمن روح الخدمة العموميّة، وإعادة تنظيم مخزنهم القديم: هو حدّ أدنى ينبغي للدّولة الفرنسيّة ذات السّيادة أن توفّره لهم[9].

لا غرابة في ذلك؛ لأنّ موظفي مكتب العرب الّذين نعتهم بيرك بالنّزعة الانفصاميّة المستحكمة في نفوسهم، ووطنيّتهم ذات الخلطة الغربيّة الّتي تجمع «بين الشّوفينيّة الفرنسيّة من جهة، وبين الانتماء إلى الحاضرة العربية من جهة أخرى»، قد جعلت منهم أناسًا يعتقدون بأنّ العمليّة الاستعماريّة سرمديّة، فلم يكن ليخطر ببالهم بأنّها فانية، وأن مصيرها إلى الزّوال، ووسط هذا الخلاف الحادّ بينه وبين الإدارة الاستعماريّة، ما الّذي كان في إمكان بيرك فعله؟ فهو لم يعتد اللّغة المحلّيّة بعد، ولا يزال محتاجًا إلى أولئك «القِياد»، ليترجموا له شكاوى الأهالي وكلّ ما يتّصل بأعيادهم ومنازعاتهم، وما يحلّ بهم من حرائق تلتهم حرثهم ودوابهم، وليداروا عنه - أيضًا - ميوله ورغبته في تحسين شروط أولئك المستعمَرين الضعفاء، فيضطّر - بذلك - إلى مجاملة «القِياد»، حتّى لا يشوا به إلى الإدارة الفرنسيّة، فتعرّضه للعقوبة.

إلى جانب ذلك؛ كان بيرك يضطلع بهمّة معرفيّة داخل مكتب العرب؛ حيث لم تمنعه مواقفه الآنفة الذّكر من الشّغف بالتّعرّف عن كثب إلى تلك الأقلام الّتي أطلق عليها الحاكم (Dilavignette) اسم «الحكّام الحقيقيّون للإمبراطوريّة» الفرنسيّة؛ ففي كتاباتهم وطرائق بحثهم وتحقيقاتهم الميدانيّة ما يستحقّ عناء المتابعة والمطالعة، لذلك؛ لم ينتقص بيرك من إنجازات كتاب مكاتب العرب؛ فهي - على علّتها - تمثّل «الشّكل الأكثر تفهّمًا في إدارة العهد الاستعماريّ»، من هنا؛ تحفّظ بيرك كثيرًا من مبالغات زميله(L. Massignon)؛ الّذي انتقد بشدّة تلك المؤسّسة، وعدّها مجرّد «وكرًا من أوكار الجوسسة» الّذي تستخدمه الإدارة الاستعماريّة في استغلال الأهالي.

إنّ مآخذ بيرك على مكاتب العرب لم تكن عدميّة؛ فهو لم ينكر عليها سوى جمودها، وعدم قدرتها على التّكيّف مع عالم متحرّك يتّجه نحو المستقبل، كما استهجن عجزها وعدم قدرتها على رؤية «التّاريخ من الأمام» وليس من الخلف، وتقوقعها، بالتّالي، في حلقة الماضي، وبعبارة جامعة يقول بيرك: «إنّ الفرنسيّين بقوا روّادًا، لكن لم يكونوا عدولًا حيال التّاريخ»، فهم لم يهضموا بعد أنّ فكرة الاستعمار ليست إلّا لحظة عابرة وانتقالية في الزّمان وليست بالأبديّة.

8- المرجع نفسه، 1975م، ص 116.

9- مرجع سابق، 1997م، ص 114.

إجمالًا؛ فإنّ مكتب العرب الّذي نشأ في الجزائر على يد الرّقيب (de Lamoricière)، وكان يخضع لسلطة الضّباط الشّباب والإداريّين العسكريّين، لم يكن ليمنع بيرك من إنصاف الباحثين العاملين بأروقته؛ إذ يجب - بحسبه - «أن يعطي الحقّ لأولئك الباحثين الأوائل، هذا على الرّغم من المنهج الغير دقيق الّذي استعملوه، وعلى الرّغم من موسوعيّتهم الهشّة في الغالب، إلّا أنّهم روّجوا لعدد كبير من المباحث الّتي لا زلنا نعتمد عليها، هذا بغضّ النّظر عن كونها خاطئة أم صائبة»[10] (بتصرّف)، يقول بيرك.

في وصفه لكُتّاب مكاتب العرب:

لم تكن مكاتب العرب المتقصّية للمعلومات والواضعة للمونوغرافيّات، بغرض التّحكّم في الجغرافيا وفي الديمغرافيا المغاربيّة على حدّ سواء، تخلّوا عن الأقلام المهنيّة والخبرات المحترفة الّتي يمكن الاستفادة منها، هذا ما أكّده بيرك في العديد من كتاباته الّتي رصد بها بعمق التّراث (الأدبيّ والعلميّ) الّذي وقف عنده أثناء تواجده في مكتب العرب؛ فهو لم يتوانى في وصف ما كتبه كلّ من (Daumas) و(Richard وPein وHugonnet) بالعمل النّزيه والدّقيق، خصوصًا، في المصنّفات الّتي ألّفوها والقوائم الّتي استحدثوها في ترتيب القبائل العربيّة؛ حيث وفّر ذلك الجهد الكثير بالنّسبة إلى الأجيال اللّاحقة من الباحثين، فدراسات أولئك الرّوّاد المدعومة بالفعل الّتي يأتي في مطلعها موضوع «الأسرة الأبويّة»، قد أهدت للباحثين الجدد المفاتيح التّفسيريّة الّتي لم يغفل قيمتها باحث مثل (R. Montagne)، واستغلّها أيّما استغلال في جميع أعماله العلميّة، وبيرك يصف طرائق البحث عند أولئك الرّوّاد، فيقول: «إنّ الملاحظة المباشرة لم تكن الوحيدة من نوعها في أعمالهم؛ إنّما - أيضًا - المعلومة الغير المباشرة قد لعبت دورًا مهمًّا في البناء المتأنّي للظّواهر الخفيّة عن أنظارنا، والنّقد الهادئ والمرن للشهود ساهم في تحديد الوقائع وإبعادها عن التّضخيم، وأحيانًا، عن الخيال»، لقد تميّز كلّ من (Daumas Eugene) بهذه المنهجيّة، بالأخص، أثناء تحقيقاته في الصّحراء[11].

و(A.E.H.Carette) في عمله بمنطقة القبائل[12]، دون إغفال - بطبيعة الحال - تلك الرّوح الاستعماريّة الّتي كانت تحرّكهم، وقد وجدت هذه الصّرامة في البحث من ينصفها ويحتذي حذوها، وهذا حتّى بعد مرور نصف قرن عليها؛ ففي المغرب قام Mouliéras[13] بإعادة تحيين التّحقيق الشّفويّ الدّقيق والعميق مع عمّال الحصاد، وتوصّل بموجبه إلى وصف مفصّل للمحاصيل الزراعيّة المنتجة. إنّ (Daumas)

10- المرجع نفسه، 1975م، ص 116.

11- Berque Jacques. Cent vingt-cinq ans de sociologie maghrébine. In: Annales. Économies, Sociétés, Civilis - tions. 11e année, N. 3, 1956. pp. 296-324; doi: 10.3406/ahess.1956.2554.http: //www.persee.fr/doc/ahess_0395-2649_1956_num_11_3_2554. p. 305.

12- المرجع نفسه، 1956، ص 305.

13- المرجع نفسه، 1956، ص 189.

ومن بعده (Rinn) استعرضا في أبحاثهما قاموس الألفاظ والمنطوقات الأمازيغيّة الأكثر غرابة، ما أحرج العقداء المتقاعدين، وأثار مخاوفهم حيال نظريّاتهم الشّخصيّة الّتي روّجت لِـ "أسطورة" الاشتراك العرقيّ بين البربر والفرنسيّين، وهمّشت - متعمّدة - في المقابل العنصر العربيّ، أعمال الموسوعيّين من أمثال: (Berbrugger)، والمترجمين من أمثال: (Rémusat) و(Slane) وأعادت - من جانبها - عبد الرّحمن ابن خلدون مجدّدًا إلى الواجهة، وأحيت معها روح الملاحظة المباشرة الّتي لا تزال تحتفظ بقيمتها إلى يومنا الحالي.

للعلم؛ إنّ الأسماء المشار إليها أعلاه، لم تكن تنتمي - في مجملها - إلى القطّاع المدنيّ، فمن بين من ذُكر نجد: الضّباط والإداريّين الّذين كانت لهم ألقاب علميّة، وانخرطوا بجدّ في البحث الخالص، نذكر على سبيل المثال: (Le Chatelier Castries)، و(Doutté)، و(R.Montagne)؛ الّذين يصنّفون ضمن هذا التّرتيب، وعليه؛ فإنّ من الخسارة أن لا يُنظر إلى تلك الأعمال بالنّقد الهادف، وذلك لمجرّد انتمائها إلى الإدارة الاستعماريّة؛ إذ كيف يعقل أن لا يستفاد من الاكتشافات ومن العروض المونوغرافيّة بذريعة انتمائها إلى الموروث الاستعماريّ؟ وكيف لنا أن نتعامى أو نغضّ الطّرف عن نفاسة ما أتت به مجموعة المجتمع التّاريخيّ للجزائر (la Société historique algérienne)، والمجتمعات الجغرافيّة (S.G) لكلّ من الجزائر ووهران، ومجتمع الأركيولوجيا لقسنطينة والأعمال المونوغرافيّة لكلّ من (E. Mercier, Feraud, Arnaud)، وما تحمله كلّ تلك الأعمال من ثراء وتنوّع؟ لقد حنكت السّنين الطّوال المعرفة الكولونياليّة المتخصّصة في الفضاء الجزائريّ، فاتّسع نطاقها وتغلغلت جذورها، فمن المجحف أن نتجاهل (Foucauld) هنا، وما قدّمه من أعمال مونوغرافيا حول منطقة الهقار الّتي لم يدانيها في المغرب - من حيث القيمة - عمل مثلها، أو ندير ظهرنا لتلك التحقيقات الرّائعة الّتي حملت الباحثين بعيدًا، من أجل التّحقيق في "الوقائع الاجتماعيّة الكلّيّة"، لقد وثّق قاموس التّواقيع (autographe) الّذي ألفه (A. Basset) بعد وفاة (Foucauld) في هذا الشّأن، تلك الأسماء الّتي جابت أراضي المغرب الشّاسعة، ودوّنت أبحاثها وتجاربها الميدانيّة.

ننوّه - هنا - بذلك التّعاون الّذي جمع النّقيب (N.Lacroix) المسؤول عن مصلحة شؤون الأهالي بالباحثين (H. de la Martiniére)، و(Aug. Bernard)، وأثمر - سنة 1906م - كتابًا مرجعيًّا يحمل عنوان (L'évolution du nomadisme en Algérie)، وعدّ بيرك ذلك العمل الأوّل من نوعه حول الجغرافيا الإنسانيّة في إفريقيا الشّماليّة، كما عدّ كتاب (Aug. Bernard) حول التّخوم الجزائريّة المغربيّة، إضافة جديدة في التّعريف "بالقبيلة"، بحيث شخّص الكاتب فيه - بوضوح - حدود التّشابك والتّعقّد والعلاقة الحميمة الّتي تربط القبيلة بالاقتصاد الرّعويّ، المواتي جدًّا لحياة التّرحال والتّنقّل.

الأسماء الرّائدة في علم المغرب:

إنّ الأعمال الّتي تتميّز بالصّياغة وبطرح الفروض وتجاوز المسائل الفرديّة إلى التّفسير البعيد، حاضرة بقوّة في الأدبيّات الكولونياليّة، لنذّكر - هنا - بأعمال (E. Masqueray) في الموضوع، وفي أعمال المدرسة الجزائريّة الّتي نجحت في الجمع بين الثّقافة العلميّة والعمل القاعديّ الأساسيّ والمقارنة، وبين التّحقيق الميدانيّ والسّفر المتواصل.

إنّ (E. Masqueray) المولع بجمع الذّكريات والمشاهد Souvenirs et Visions (1894م)، والمتفحّص في اللّهجات عن قرب[14] عزّز من الصّرامة المونوغرافيّة، وأبرز محاسن الاستقراء، لقد كتب سنة (1886م) كتابًا تاريخيًا أسماه (La formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie)، وقال عنه بيرك: "لقد كان له الفضل الكبير (أي الكتاب) في إنجاز العديد من أبحاثي" وذلك لما له من أهمية في إبراز للمجتمعات البربرية الثلاثة والمتمثلة في المجتمع القبائلي والأوراسي والمزابي، وتناوله لها بالفحص والتّحليل والتّنوّع المونوغرافيّ.

للتّذكير - هنا - إنّ ملاحظات (E. Masqueray) الغنيّة، تأتي في إطار جملة الملاحظات الرّائعة الّتي قدّمها (Duveyrier) حول الحواضر الصّحراويّة، وملاحظات (Doutté) حول السّحر، و(Montagne) حول القبائل البربريّة، وقد أفاد بيرك منها الكثير - خصوصًا - في عمله حول الأطلس الكبير، لكن - على الرّغم من أهميّة (Masqueray) ومكانته في علوم المغرب، إلّا أنّ بيرك لم يكن ليقرّه على جميع قناعاته الّتي أوردها في كتابه الكبير، وطالما استهجن بيرك بقاء ماسكري في جُبّة (Fustel)، خصوصًا بعدما شبّه بشكل نمطيّ المجتمعات المغاربيّة بالمجتمعات الإيطاليّة القديمة، فقد ضلّل ذلك كثيرًا (يذكر بيرك) ما يقارب ثلاثة أجيال من الباحثين، وجعلهم يخلطون بين الحاضرة البربريّة (L'ikhs) (لغة تعني العظم أو السّلالة)، وبين الحاضرة الرّومانيّة (la gens) في حين أنّ التّحقيق التّوبوغرافيّ الرّصين، يفنّد ذلك التّماثل، ويعدّه مجرّد افتراض يعوزه الدّليل والإثبات المادّيّ، في ذات السّياق؛ طالب بيرك بضرورة إعادة النّظر في سؤال البنى البربريّة، إذا ما كانت "أركائيكيّة" بالفعل، أم أنّ ذلك مجرّد تخمين مضلّل تحتاج إليه الإدارة الكولونياليّة لإنفاذ سياساتها وتمرير مخطّطاتها الاستغلاليّة؟

أمّا بشأن القيمة الأكاديميّة المتعلّقة بأعمال إداريّي البلديّات المختلطة؛ فإنّ بيرك أقرّ بأنّ هذه الفئة لم تغفل - في نشاطها الكتابيّ - الجمع بين البعد النّظريّ وبين البعد العمليّ، نشير هنا - على وجه الخصوص - إلى أعمال (E. Doutté) الّذي وصفه بيرك بـِ «الملاحظ الحاذق، والرّحّالة الحذر، والمحقّق الثّبت الّذي عمل على تصحيح أخطاء الموسوعيّين الخياليّين»، فقد وجدت فيه كلّ من الإثنولوجيا الإنجليزيّة والسّوسيولوجيا

14- وعن بُعد أيضًا، ينقل بيرك ذلك عن (W. Marçais)، المرجع نفسه، 1965م، ص 194.

الفرنسيّة، الشّخص النّموذجيّ الأمثل في العمل الميدانيّ الممنهج، فكتابه الشّهير (Magie et Religion) الّذي ألّفه سنة (1909م) جعل منه رائدًا فريدًا في مجال الإسلامولوجيا المغاربيّة بشكل عامّ، وإن كان لم يرق لبيرك كثيرًا تقديم المغرب كأنّه بلد السّحر والشّعوذة، إلّا أنّ ذلك لم يمنعه من الاعتراف بأنّ هذا الميدان قد وجد - بكلّ استحقاق - واصفه الحقيقيّ، ويقصد بذلك إ. دوتيه.

في ثلاثينيّات القرن الماضي نشطت حركة التّرجمة[15] والتّفسير، فتعزّزت بذلك علوم الشّمال الإفريقيّ بميثولوجيا رائعة؛ حيث لعبت كتابات (E. - F. Gautier) - في هذا الصّدد - دورًا حيويًّا فعّالًا، خصوصًا برؤيته تلك حول مغزى الحياة المنبعثة من التقاء البنى الاجتماعيّة بالظّواهر الخارجيّة، وامتزاج العالم الافتراضيّ الّذي تغذّيه مواهب الماضي بالعالم الملموس وبالمبادرات الإنسانيّة، تلك الإزدواجيّة الّتي يجتمع فيها المعيش الدّاخليّ بالمشهد الخارجيّ للحياة في الفضاء المغاربيّ الفسيح المتنوّع، هي - بحسب (E. - F. Gautier) - من ينبغي الاعتناء بها والتّركيز عليها من قبل علم اجتماع الشّمال الإفريقيّ، فمراعاة هذا البعد سيضمن التّفوّق الكامل لعلم الاجتماع - بحسب بيرك - «إنّ ما قدّمه (Gautier) في ذلك الطّرح، يعدّ درسًا جيّدًا يجب الاحتذاء به».

أخيرًا وليس آخرًا؛ يلفت بيرك عناية قرّائه إلى أهميّة كتابات (R. Montagne) في إثراء علوم المغرب؛ فمقالات الرّجل الّذي كان ينشرها ابتداء من سنة (1924م) على مجلة (Hespéris)، قد أكّدت أنّ نهجه لا يختلف في شيء عن سلفه (Gautier)، وجهوده المبذولة في إعادة إحياء أطروحات ابن خلدون ذات المضمون الميدانيّ والمقاربة التّجريبيّة، وملاحظة الوقائع، واختبار الأفعال، قوّضت أطروحات الضّبّاط السّابقين؛ فنظريّته المشهورة باسم (Montagne) اللف[16] Leffs، الّتي تقضي بعدم جدوى الاتّكاء على مفهوم الإثنيّة، أكّد بها على أنّ القبيلة ما هي إلّا تجمّع سياسيّ وليس عشائريّ، لذلك؛ لا يمكن أن يعدّ ميدانيًّا بهذا المعطى الأخير في التّحليل والتّفسير، وتوخّيه للممارسة الميدانيّة إلى حدّ بعيد، واعتماده في نهجه على أسلوب الاستحضار والاستدعاء، قد أعطى كتابه الّذي ألّفه سنة (1930م)، والموسوم باسم «Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc: essai sur la transformation politique des Berbères sédentaires (groupe chleuh)» ميزة وقيمة فريدتين، كما منح ذلك النّهج لأعماله المزيد من التّقدّم والاستمرار.

15- W. Mac Guskin de Slan (TRAD), (1801-1878) , Les Prolégomènes d'Ibn Khaldoun (732-808 de L'Hégire) (1332-1406 de J. C) (1863) deuxième partie. Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1936.

16- اللّف: هو تعبير بربريّ غائيّ، يقصد به تشكيل الأحلاف بغرض ضمان وظائف اجتماعيّة محدّدة، أو تحقيق أهداف خاصّة، تتحوّل- بدورها- إلى غاية في حدّ ذاتها، يعمل اللّف على تجسيدها. انظر:

Mohamed BERDOUZI , Structure du Maroc pré- Colonial: Critique du Robert Montagne, (Mémoire pour l'obtention du diplôme des études supérieures es-sciences politiques), Edition La croisée des Chemins, Rabat, Novembre 1981. P.68.

إنّ كلّ تلك الأعمال المشار إليها أعلاه، بما في ذلك الأسماء المرموقة والوازنة في مجال فنون العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة؛ هي - على أهميّتها والإضافات المتنوّعة والمتعددة التي قدمتها إلى المعرفة الأنثروبولوجيّة بالجزائر وبالمغرب ككلّ، مع عدم الإغفال - بطبيعة الحال - للملاحظات والمؤاخذات ذات المضمون الإيديولوجيّ أو الكولونياليّ الّتي تنطوي عليه؛ فذلك لا يمنع - في واقع الأمر - من الاستفادة منها، وإعادة استثمارها بعد غربلتها ونقدها بشكل هادئ وبنّاء، وأن لا تقف العقدة الكولونياليّة عائقًا مزمنًا يحول دون استغلال تلك الدّواوين الغزيرة الثّراء والتّنوّع، لقد انتهج بيرك - بالفعل - هذا المسلك؛ فهو بقدر احتفاءه بذلك التّراث وتثمين ما جاء فيه، إلّا أنّه لم يتوان في نقده وإزالة ألغامه، وتفكيك مسلّماته، فعمله الّذي أنجزه عن قبائل سكساوة - وقبله القبيلة في الشّمال الإفريقيّ - يعدّ أفضل دليل على ذلك، لنلقي نظرة على تلك الأعمال:

في معنى القبيلة في الشّمال الإفريقيّ:

يعدّ مقال بيرك الموسوم باسم «ما معنى القبيلة في الشّمال الإفريقيّ؟»: الّذي كتبه (سنة 1954م) نصًّا تاريخيًّا بامتياز؛ فقد جاء ليرجّح الكفّة في مجال الأبحاث الإثنولوجيّة الاستعماريّة الّتي فضّلت - منذ اللّحظة الأولى - اقتحام ميدان القبيلة، وإبراز الأخيرة على أنّها الكيان الأوحد الّذي يهيمن على أرض المغرب، يقول بيرك في هذا الصّدد: «في بحثنا عن المواضيع الموجّهة لمعارفنا، وعملنا على مجتمعات الشّمال الإفريقيّة، ما وجدنا أمامنا سوى القبيلة»[17]، من هنا؛ قرّر بيرك قطع الصّلة بالأحكام المسبقة والتّصوّرات الجاهزة المترتّبة عن الإرث الكولونياليّ في هذا المجال، واعتمد منهجًا ورؤية مختلفَين في البحث، تنظر للأشياء من زاوية تشبه - إلى حدّ بعيد - ما يسمّيه بيرك بِـ «ملحمة علم النّبات» (botanique métaphore) الّتي تشخّص مسمّى القبيلة مثلما تشخّص الشّجرة ذات الأصول والفروع، وكلّ ما يحيط بها من نباتات ثانويّة تحوم حول محيطها الخارجيّ، إضافة إلى ذلك؛ فإنّ بيرك لم يهمل التّخمينات ولا الافتراضات ولا الظّنون الغير أكيدة، فهذه بالنّسبة إليه موادّ تساعد في التقاط المكوّنات الّتي ستتشكّل منها «فرضيّته التّاريخيّة»، الّتي سينبني عليها بحثه، وتقول: إنّ سكّان المنطقة لم يعرفوا في حياتهم سوى الهجرة على جميع الأصعدة والمستويات.

للخوض في غمار هذا الموضوع ودراسة المجتمع في حاضره وأوانه؛ لم يكن أمام بيرك سوى شحذ ملاحظته المباشرة والراهنة، ليطلّ بها على التّشكيلات المجتمعيّة العصبويّة المحلّيّة الّتي تموج بها أرض المغرب، فكان من نتائج ذلك؛ قوله: «إنّ المجتمعات المغاربيّة ذات طبيعة مغبرّة في الغالب (..)،

17- J. Berque, 1954, «Qu'est-ce qu'une tribu nord-africaine?» in: Hommage à Lucien Febvre, Paris, 261-271 (rééd. in Maghreb, histoire, société, Alger-Gombloux, Sned-Duculot, 1974). P 261.

وذات شكل فسيفسائيّ (..)، تشبه حبّات الزّرع المتراصّة ذات الألوان القليلة»، وقد جعله هذا التّصوّر يتأكّد من أنّ الأسماء المتكرّرة للمجموعات الاجتماعيّة في ربوع المغرب الكبير وعلى مستوى الأطلس الأعلى، والأسماء المثبتة تاريخيًّا والأصول والأعراق المتعدّدة، تنشأ وتتشكّل - جميعها - بمنأى عن الخياليّة الجنيالوجيّة، للعلم؛ إنّ بيرك أدرك - منذ الوهلة الأولى - الفرق الموجود بين تعدّد الأصول وتنوّعها على اختلاف مكوّناتها وعناصرها، وبين فكرة خياليّة رابطة الدّم الّذي رمز إليها بِـ «وحدة المجموعة» والاسم الجامع لها (éponyme).

الجغرافيا المتلاشية في هذا الإطار، والحدود الخافتة عبر التّاريخ، جرّاء التّرحال المستديم لشعوب المنطقة (كما تذهب إلى ذلك إحدى الفرضيّات)، لا يلغي - البتّة - صفة التّمدّن عن تلك الشّعوب، ولا يخفي سعادتها بنمط عيشها، هذا بغضّ الطّرف عن النّظرة السّطحيّة للمشهد، الّتي تُظهر سكّان المنطقة وكأنّهم «مجموعات متشظّية مبعثرة في المكان»[18].

إنّ المجتمع المغربيّ - كما تأكّد عليه الملاحظة الرّاهنة لا النّظرة المسبقة - هو عبارة «عن نسيج متواصل» تجمع بين وحداته الخياليّة الإسميّة، وتنوّع الأصول والتّعايش المحلّيّ «دون إزعاج أي مواطن»[19] في المكان، لكن؛ كيف يقرأ بيرك ظاهرة تشابه أسماء المجموعات وتكرارها، الّتي لمس وجودها في نطاق المغرب ككلّ؟ في قناعة بيرك لا يوجد تفسير تاريخيّ لتلك الظّاهرة المتمثّلة في انضواء المجموعات الغير المتجانسة تحت اسم واحد؛ «ففي الوعي العامّ» ذلك الإشكال «لا يعود إلى التّاريخ (..)؛ إنّما يشير إلى الرّمز (..)، والمجموعات لا يهمّها سوى الاسم؛ فهو وحده من له القيمة الاجتماعيّة»، واختلاف الأسماء وتباينها في المقابل، لا يعدو - بالمناسبة - أن يكون مجرّد «اختلاف لفظيّ»، من هنا؛ فإنّ المجموعات القبليّة ليس لديها سوى ملكيّة واحدة غير قابلة للنّقاش، ألا وهي ملكيّة «راية الاسم»[20].

ولمزيد من التفصيل في الموضوع، ولشرح أوضح لمعنى الاختلاف والتّباين اللّذين يتخلّلا تلك المجموعات؛ يقول بيرك: إنّ حياة تلك المجموعات تحتكم - في مجملها - إلى «نمطين متعارضين يتمثّلان في التّشابه والتّشاكل» (بتصرّف)[21]، أمّا النّمط الأوّل؛ فهو عبارة عن تجمّع عناصر متعدّدة، تنضوي جميعها تحت اسم واحد، قد يكون - أحيانًا وليس دائمًا - اسم الجدّ الأوّل، وبذلك تشحذ وحدة المجموعة وتصاغ، أمّا النّمط الثّاني؛ فهو يخضع «لتجزّأ الأقاليم (..) إلى كنتونات متناحرة، قد تكون عصبًا أو رتبًا أو تكتّلاتٍ»

18- المرجع نفسه، 1954م، ص 264.
19- المرجع نفسه، 1954م، ص 264.
20- المرجع نفسه، 1954م، ص 264.
21- المرجع نفسه، 1954، ص 266.

(بتصرّف)[22]، وقد دأبت الكتابات العارفة بالمناسبة لقرون عدّة، على تكريس الرّؤية الخلدونيّة المتعلّقة بتفسير الأعراق البربريّة الكبرى، الّتي تفيد انصهار مختلف المجموعات ضمن نظام عتيق سام في عرقه واسمه».

لقد التفّت المعرفة الكولونياليّة على هذا التّفسير، وجعلت منه شمّاعة رئيسة تعلّق عليها جميع التّعاريف الّتي تتبناها في تشخيص التّشكيلات المجتمعيّة المحلّيّة، لكنّ بيرك رفض ذلك الطّرح، ونعته «بالأسطوريّ» الّذي لا يمتّ بالواقع الملاحَظ بأيّة صلة.

نفس الأمر يمكن قوله عن نظريّة «اللّفّ» الّتي جاء بها (Montagne R.)، وأراد منها تفسير التّاريخ الاجتماعيّ لمختلف القبائل في جنوب المغرب؛ فهي - حسب بيرك - ليست إلّا «تصنيف نمطيّ خالص» لا يرقى ليشكّل أيّ صفة من الصّفات البنيويّة الثّقافيّة والتّاريخيّة لتلك المجتمعات، «فاللّف» ليس اللّحظة الفارقة الّتي تحدّد المجموعة؛ بل إنّ ما يفرق - هنا - هو تلك «الرّوح الصّوفيّة الّتي تعمّ ساكنة الرّيف»[23]، وقد أدرك بيرك العناصر البنيويّة والوظيفيّة الّتي تتحكّم في ميكانزمات المجموعات المحلّيّة، وذلك من خلال دراسته للحركة المرابطيّة الكبرى - بين القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر - فتبيّن له كيف أنّ ذلك يشكل ارتباط وثيقًا «بالمورفولوجيّة الاجتماعيّة» المحلّيّة، وكيف أنّ «ذلك التّنوّع المرابطيّ وانتشاره الواسع على صعيد الشّمال الإفريقيّ، يدلّ على الحياة المحلّيّة المحتضَنَة داخل مربّع القبليّة»، خصوصًا، في لحظات الفتن والتّفكّك الاجتماعيّ، عندئذ؛ يبرز دور «الحراك المرابطيّ، فيقوم بإحصاء الجماعة، وجمع الأقاليم، وتجسيد التّنظيمات القديمة الّتي طالما طعن فيها الآخرون»[24].

أخيرًا وليس آخرًا: إنّ التّشكيلات الاجتماعيّة المحلّيّة - بحسب بيرك - ترتبط بـِ «التّمدّد الهلاليّ»[25] في بعض الأحيان، فالشّكل القبليّ - في الواقع - ليس ذا أصل مغاربيّ؛ بل ذا أصل عربيّ، ويخلص - بعد ذلك - إلى القول: إنّ القبيلة في الشّمال الإفريقيّ هي: «أداة نشأت بين التّطوّر العامّ للتّصوّر والخيار الإداريّ، وبين التّطوّرات المحلّيّة الّتي - غالبًا - ما تكون نشطة، تعدّ القبيلة - بهذا المنظور - ظاهرة ثانويّة، جزء منها مصطنع»[26].

بناء على هذا العمل التّفكيكيّ الرّائع: لم يبق أمام التّعميمات الإثنوغرافيّة الكولونياليّة الشّيء الكثير؛ فلقد قضى بيرك على الفروض المجانيّة، ونسف الأوهام السّالفة بالدّليل، نافيًا بقوله أيّ وجود للقبيلة «غاية

22- لمرجع نفسه، 1954، ص 264.
23- المرجع نفسه، 1954م، ص 270.
24- المرجع نفسه، 1954م، ص 271.
25- المرجع نفسه، 1954م، ص 271.
26- المرجع نفسه، 1954م، ص 271.

ما هنالك؛ هو وجود أسماء قبائل وعلامات ورايات إسميّة»، وبناء عليه؛ فإنّ العناصر المشكّلة للمجتمعات الرّيفيّة المغاربيّة؛ إنما هي عبارة عن «مجموعات» من الجماعات المتنوّعة ومن الكيانات المتداخلة والمتعدّدة، والمنقسمة في هويّتها الجماعيّة وتمثّلاتها الشّعوريّة والصّراعيّة، مشكّلة - بذلك - كيانات حقيقيّة، لذات السبب أغفل بيرك - متعمّدًا - استعمال أو توظيف مسمّى القبيلة، واختار بدلًا منه مسمّى الأهالي أو «المجموعة»، وتأكيدًا منه على ذلك؛ فقد أشار بيرك إلى العديد من الأشكال المجتمعيّة الّتي انحلّت وانتهت وفقدت اسمها، منها: «الأسلاف القبليّة»[27]، من أمثال؛ قبائل العهد الوسيط: كصنهاجة ومصمودة وزناته و... إلخ، هذه - إذن - حصيلة بيرك في ما يخصّ النّزعة القبليّة بالمغرب، وذلك حتّى قبل ظهور النّموذج الانقساميّ الجلنريّ[28] على صعيد الشّمال الإفريقيّ.

البنى الأوّليّة للأطلس الكبير؛ استقصاء للتّاريخ المجتمعيّ ونسف لمسمّى القبيلة:

لقد كان لأطروحة بيرك الرّائدة «البنى الأوليّة للأطلس الكبير» (سنة 1955م) عظيم الأثر على الباحثين من بعده، الّذين عملوا - بوجه الخصوص - على الملفّ المغربيّ؛ إذ لا تزال التّساؤلات الّتي أثارها تلهم الكثير من أولئك الدّارسين؛ فقد فتح لهم بوابة العمل الأنثروبولوجيّ في المغرب على مصراعيها، وأطروحة بيرك المليئة بالمشاهد وبالأصوات، وبالرّوائح والأذواق، وبمختلف أشكال الزّينة والألوان المستعملة، والحصى المنحوتة في المنازل الرّائعة، وغير ذلك من التّفاصيل؛ إنّما هو إبداع تأثّر - في وجه من وجوهه - بأعمال أستاذه (Louis Gernet)، وبنصائح (Marcel Mauss) الأنثروبولوجيّ المعروف، وبما اغترفه من مدرسة الحوليّات الّتي يمثّلها كلّ من (Lucien Febvre)، و(Marc Bloch) اللّذان اعترف لهما بيرك بالفضل - خصوصًا - في مجال تعلّم فنّ ما بين التّخصّصات، الّذي اعتمده بيرك كمقاربة بحث في التّاريخ الاجتماعيّ للمجتمع المغربيّ، الّذي في القلب منه قبائل سكساوة؛ الّتي افتتن بها بيرك أيّما افتتان، وسحرته أراضيها الغابية الخلّابة؛ "فالرّوعة (يقول بيرك) تعني سكساوة"، من هنا؛ اجتهد الرّجل في تعلّم لغاتها ولهجاتها المختلفة، فلم يعد يقتنع كثيرًا بما يقدّمه المترجمين ولا المرشدين، الّذين قد يضلّلون أكثر ما يفيدون، فلا مناص - إذن - من "التّحكّم في اللّغة المستعملة - كالعربيّة المغربيّة الدّارجة - بما في ذلك الشّلوح، "إنّ هذا العمل لم يكن يتقنه (بالمناسبة) إلّا عدد قليل، يعدّون على أطراف أصابع اليد الواحدة ممّن درسوا الشّمال الإفريقيّ"[29].

27- مرجع سبق ذكره، 1975م، ص 349.

28- J.Berque, 2011, OPERA MINORA «Islam populaire et Islam purifié», Compte rendu de Ernest Gellner, Mu - lim Society, Times Literary Supplement, 11December, 1981.

29- مرجع سابق، 1988م، ص 32.

إنّ هذا الجهد اللّغويّ الّذي بذله بيرك في تعلّم اللّغة واللّهجات البربريّة المحلّيّة، قد وجّه اهتمامه - مباشرة - نحو أسامي الأماكن والمناطق (La toponymie)؛ فقبائل سكساوى الّتي أبهرته بما تزخر به من علم وتنوّع ثقافيّ، وتناغم في مكوّناتها وأجزائها، قد لفتت انتباهه إلى الأهميّة الكبرى الّتي يلعبها اسم المكان في إحداث الانسجام والألفة بين الجموع، فالقبائل لا ينتظم شتاتها إلّا على قاعدة الحقوق المتعارَف عليها، وتسهر عين (التوبونيميا) الّتي تعمّ البلاد على حراستها، والشّهور الثّلاث الّتي قضاها في أودية آيت عطا بأعالي الأطلس، جعلته يكتشف مدى أهميّة «الألقاب المكانيّة (onomastique)؛ الّتي تعمّ تلك الأفضية المركّبة، والّتي - غالبًا - ما يكون الوسط الطّبيعيّ المحدّد الأساسيّ لها، أمّا المحدَّد؛ فهو اسم المكان الّذي ينشأ إثر التّدخّل الإنسانيّ فيه، فيتشكّل - بذلك - الوسط الثّانويّ منه»[30].

«لكنّ ذلك لا يعني أنّ الأقاليم الّتي تخضع - من النّاحية المجتمعيّة - للرّقابة «التوبونيميا»، تؤثّر في البُنى الاجتماعيّة أو الممارسات الفلاحيّة»[31]، كلّ ما هنالك؛ أنّ إثنولوجيّة الاسم - في هذا المضمار - معزوفة من أسماء الأماكن، وتؤدّي دورًا جماليًا ليس إلّا، وبناء عليه؛ فإنّ توزيع الأقاليم ذات «الأسماء» وتصنيفها، يكون حسب صورة الألقاب المكانيّة وسمعتها، وحسب نظام الدّورة المائيّة وتقويمه السّنويّ أيضًا.

إنّ هذا التّشكّل التّنظيميّ الرّائع هو أساس أطروحة البُنى الاجتماعيّة للأطلس الكبير، الّتي ارتكزت تفاصيلها على سجلّات مختلفة، بإمكاننا إجمالها في العناصر الثّلاثة الأساسيّة الآتية:

أوّلًا: العرض التّاريخيّ الحصريّ لمجموعة «ثاقبايلت» من مجمل قبائل سكساوى، مع كتابة المئات من الإثنواسميّة، وتقديم «بعض التّحاليل الإقليميّة»، وتتضمّن ثلاث مائة جزئيّة من الأسماء المكانيّة المترجمة بدقّة، إضافة إلى سرد العشرات من الحكم الشّعبيّة الزّراعيّة (من صفحة 131 إلى صفحة 134)[32].

ثانيًا: تخصيص ثلاث صفحات - (257 - 258 - 259)[33] - لذكر أسماء الأماكن المقدّسة.

ثالثًا: وضع قائمة بالأسماء المحلّيّة، تتكوّن من (224) تعبيرًا، وترجمتها - في المقابل - إلى اللّغة الفرنسيّة، إضافة إلى الصّور والتّرجمات المتنوّعة، الدّقيقة منها والمنطوقة بحروفها، وتوصيف معاني النّظام المعرفيّ للفاعلين؛ أي ما يشبه - إلى حدّ بعيد - الخواطر الإثنوعلميّة، وللعلم؛ فإنّ أطروحة بيرك تلك تتخلّلها الكثير من التّقابلّيات والثّنائيّات، وهي - وفق لفظه - تتشكّل من الأزواج الآتية: «العامّ والخصوصيّ»،

30- LEFEBURE, Claude, 1971, Le cinquième, la tribu, l'os, le foyer: introduction à l'étude de la segmentation sociale chez les Ayt cAtta, maîtrise spécialisée d'ethnologie, Université René Descartes- Paris V. p. 20.

31- المرجع نفسه، 1997م، ص 98.

32- المرجع نفسه، نقلًا عن بيرك، 1955م.

33- المرجع نفسه، نقلًا عن بيرك، 1955م.

«الملموس والتّفسيريّ»، «الجماعيّ والذّاكرة»، «الوحدويّ والتّميزيّ»، «التّحليليّ والمعيش»، «المصرَّح به والغامض، ثمّ الغامض والغير مصرَّح به»، «الأماني والمقدّس التّهيجيّ»[34]، وغيرها من تلك الثّنائيّات والتّقابليّات الّتي يحبّذ الباحث الإثنولوجيّ العمل عليها عادة، وهذا التّوظيف المعرفيّ الّذي انتهجه بيرك في أطروحته ميّزه عن غيره، ومنحه الفرادة والسّبق في مجال علوم المغرب.

في الواقع؛ إنّ البراعة الّتي أبداها بيرك في عمله المذكور، لها خلفيّة سيكولوجيّة ذاتيّة عميقة، دفعت به نحو التّنقيب في الأغوار، وذلك من أجل ملامسة الرّوح الجماعيّة العامّة للسّاكنة؛ فمجِلة سكساوى الفاتنة بغطائها الغابيّ، كان لها هنا الدّور الحاسم في تحول مسار بيرك المعرفيّ، فقد لاحظ عن كثب كيف أنّ نظامها المجتمعيّ يتشكّل من «الأحاسيس ومن المشاعر المشتركة، ومن تصوّر معيّن للعدل وللجور»، وهذا الشّعور الاجتماعيّ - بحسبه - إنّما جاء «نتيجة التّراكم التّاريخيّ - أو بالأحرى - هو من صنع التّاريخ ذاته»[35]، لجأ بيرك في أطروحته - من هنا - في إلى الاشتغال بالتّاريخ الاجتماعيّ، فهو وحده الكفيل بتفكيك مآثر تلك المجتمعات، «فالتّاريخ يمثّل - في آن واحد - المنطلق والنّتيجة في هذا البحث» (هكذا ورد في ملحق الطّبعة الثّانية)[36]، واهتمام بيرك بالتّاريخ الاجتماعيّ لساكنة سكساوى يرجع - أيضًا - إلى «الأهميّة الّتي يوليها سكّان المنطقة لكلّ ما يتعلّق بماضيهم»[37]، فالمجموعة الاجتماعيّة - بحسب بيرك - تستعمل لذات الغرض مختلف الأساليب والتقنيّات لأجل تسجيل ماضيها؛ فهي - بذلك - لا تستغن عن الرّصيد العائليّ، ولا عن الثّقافة الشّفويّة وأسماء القبائل والأماكن في تثبيت هويتها التاريخيّة[38]، هكذا كانت رؤية بيرك - إجمالًا - عن الأرياف والبوادي، لكن، ماذا عن المدن والحواضر المغاربيّة؟ ما هي مساهماته في هذا المجال؟ وكيف حلّل البنى وفكّك التّشكيلات المجتمعيّة والمورفولوجيّة؟

الحاضرة المغاربيّة في كتابات بيرك:

إنّ المتتبِّع لسيرة ج. بيرك الذّاتية يدرك أهميّة ذلك الرّجل - الذّاتيّة والموضوعيّة - والإضافة الّتي أسداها لمعرفة المدن والإسلام المغاربيّ خاصّة، ولعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا الحضريّة عامّة؛ فمدّة العقدين - أو يزيد من الزّمن - التي قضاها في المغرب مسؤولًا عن شؤون الأهالي، جعلته في اتّصال يوميّ مكثّف بأهل الأرياف، ممّا جعله يكتسب خبرة وتجربة ميدانيّتين واسعتين[39]، وقد ظهر ذلك جليًّا في

34- Berque, 1978: 131, 175, 213,454.

35- Berque, 1978, 392.

36- Berque, 1978. Structures Sociales du Haut- Atlas. 2éme éd. revue et augmentée. Paris: Presses universitaire de France. (Sociologie d'aujourd'hui).

37- محمّد الدّهان، «جاك بيرك والمغرب»، إضافات العدد السّابع، صيف 2009.

38- مرجع سابق، 1978م، ص 62.

39- Mairies Akar, 1980, «Entretiens avec», ARABIES. Paris, Stock, édit augmentée.

كتاباته وأبحاثه؛ فمنذ ثلاثينيّات القرن الماضي وبيرك يعمل دون كلل على سبر أغوار المغرب، مقدّمًا في ذلك الأرياف على الحواضر، وفحصه للعقود الرّعويّة عند بني مسكين سنة 1936م، ثم دراساته - بعد ذلك - لتاريخ الرّيف المغربيّ سنة 1938م، يشهدان ويؤكدان الاهتمام الّذي سينتقل معه فيما بعد، ويتحوّل إلى اهتمام أوسع بالحواضر وبالمدن، على أن يكون الفقه هذه المرّة مدخله الرّئيس، وليس العمران في حدّ ذاته، لقد درس لهذا الغرض في سنة 1940م «نوازل المزارعة» لميار الوزّاني، وأصدر - فيما بعد - سنة 1944م دراسته المعروفة باسم «بحث في منهاج الفقه المغاربيّ»، لكن ما السّرّ وراء اهتمام بيرك بالفقه والتّشريع الإسلاميّين أثناء دراسته للحواضر والمدن المغاربيّة؟

إنّ اهتمام بيرك بالفقه في أربعينيّات القرن الماضي دون العمران؛ إنما يعود إلى دور المدوّنة الفقهيّة في تنظيم انتقال النّاس من «البدو إلى الحضر»؛ فالمدوّنة الفقهيّة - إن شئنا - تمثّل الملاذ الآمن الّذي يضمن التّمسّك بالإسلام، وذلك أثناء حدوث هذا النّوع من الحراك، لذات السّبب نجد أنّ الفقه قد تطوّر في المدن والحواضر، وليس بالبوادي والأرياف؛ فالأخيرة كانت - دائمًا - فضاء خصبًا لنفوذ التّقاليد وسلطة الأعراف، بينما المدن كانت تمثّل الحاضنة المفضّلة والبيئة المثلى لتواجد الفقهاء والعلماء، في الوقت الذي كانت فيه البوادي والأرياف مسرحًا ينشط فيه شيوخ الزّاويا، ويُمجَّد على خشبته الأولياء، فيجب - على هذا الأساس - فهم الأمر الّذي ربط بيرك بسببه إعمار المدن المغاربيّة بالموروث الفقهيّ، ثمّ سرّ توالي أعماله الفكريّة وترتيبها على النّحو الآتي: الرّيف - الفقه - العمران.

لقد تجلّت هذه الخبرة لديه في أعمال عدّة، ابتدأها بالاهتمام بمدينة فاس؛ الّتي كتب عنها مقالات عدّة، وافتتحها بملاحظاته الخاصّة حول جامع القرويّين؛ حيث كتب في ذلك دراسة أسماها «دور الجامعة الإسلاميّة بالمغرب الجديد»[40]، واختتمها - بعد مرور ما يزيد عن الثّلاثين سنة - بمقال عنوانه «فاس أو مصير مدينة»[41] في سنة 1949م، وكتب - في ذات الموضوع - مقالًا آخر أسماه «المدينة والجامعة: نظرة حول تاريخ مدرسة فاس»[42]، ثم أطروحته الأخيرة الّتي أنجزها سنة 1955م، وكانت بعنوان «حول البنى الاجتماعيّة لسكساوى في الأطلس الأعلى»[43].

40- Berque, J.1938, Dans le Maroc nouveau: Le rôle d'une université islamique. Annales d'Histoire Economique et Sociale, 51, 1938,193-207.

41- Berque, J.1972. «Fès ou le destin d'une médina», Cahiers internationaux de Sociologie, LI, 1972: 5-32; repris in De L'Euphrate. .. 1978, 1: 380-415.

42- Berque, J, 1949, Ville et université: Aperçu sur l'histoire de l'École de Fès, Paris, Sirey, 1949 (tiré à part de la Revue Historique de Droit Français et Étranger, 26: 64-1 17) ; repris in Maghreb, histoire. 1974, ch. 3: 35-47.

43- Berque, J.1955. Structures sociales du Haut-Atlas, Paris, PUF, 472 p. ; 2e édition augmentée d'un «Retour aux Seksawa» (en coll. avec Paul Pascon), ibid., 1978, 520p. (Bibliothèque de sociologie contemporaine).

لم يتوقف إنتاج الرّجل - في الواقع - عند هذا الحدّ؛ بل زاد اهتمامه بالحواضر وبالمدن في فترة الخمسينيّات من القرن الماضي خصوصًا؛ أي الفترة الّتي كان فيها الفضاء المغاربيّ تحت نير الاستعمار ووقع الحروب وبروز الهويّات الوطنيّة، وقد تأثّرت كتاباته الحضريّة بهذا السّياق؛ إذ كتب سنة 1958م «الحاضرة المنيفة/ (la cité éminente)"[44]، و"المُدينة والمَدينة الجديدة ومدن الصّفيح/ (médinas ville neuves et bidonvilles)"، موظّفًا في ذلك المنهج السّوسيو أنثروبولوجيّ الحضريّ المرتكز - أساسًا - على النّموذج العتيق (l'archétype) الّذي تمثّله مدينة فاس التّقليديّة، وقد كتب عنها بيرك دراسات وأبحاث عدّة، نذكر منها: مقاله «بروز العاصمة المسلمة» (Genèse d'une métropole musulmane)، وكتابه «المغرب التاريخ والمجتمع/ (Maghreb histoire et société)، وكتاب «المغرب بين الحربين/ (guerres Maghreb entre deux)» سنة 1962م؛ الثّريّ بالوصف، وبالتّحاليل الحضريّة، وبأنماط الحياة المدنيّة ذات التّأثير في الأخلاق والعمل السّياسيّ عامّة.

إجمالًا: إنّ ما قدّمه بيرك للنّظريّة الحضريّة وللتّحقيق الإثنوغرافيّ، الّذي يمكن اختصاره في ثلاثيّة «المدينة العتيقة والمدينة الجديدة وبيوت الصّفيح»، يعدّ جهدًا غير مسبوق، تتّبع فيه مختلف التّحوّلات العميقة الّتي عرفها الفضاء المغاربيّ في فترتَي الاستعمار والاستقلال على حدّ سواء.

نظرته لمورفولوجيّة المدن المغاربيّة:

لقد تمحورت تساؤلات بيرك بالمغرب - في شقّها العمرانيّ - حول مسألة الحدود الّتي تفصل وتميّز المدينة الرّيفيّة الصّغيرة عن المدينة الكبيرة، فأين تنتهي الأولى؟ ومن أين تبدأ الثّانية؟ بحسب بيرك: إنّ المتغيّر الدّيمغرافيّ لا يكفي لتحديد مسمّى المدينة الحديثة وتعريفها، لذلك ارتكزت ملاحظاته المباشرة للفضاء المغاربيّ - في الأساس - على تصوّر أكثر أنثروبولوجيّة في ضبط المسميّات وصياغة التّعاريف الخاصّة بالمجال، وفرّق بيرك - من هنا - بين نموذجين مورفولوجيَّين اثنين: النّموذج الرّيفيّ التّقليديّ، ويصفه بأنّه: «تجمّع اجتماعيّ بدائيّ ذو شكل ريفيّ، يعاد فيه تشكّل العصبيّات بصفة غير مكتملة، مركزه السّوق الّذي يتقاطر عليه أهل القبيلة، ويستند اقتصاده على الزّراعة الرّعويّة»، وهذا النّموذج من التّجمّع السّكنيّ - في عرف بيرك - لا يمكن تسميته (المدينة)، حتّى إن اشتملت ساكنته على النّصاب الدّيمغرافيّ المطلوب.

فما هي المدينة في نظر بيرك إذن؟ إنّ المدينة (النّموذج الثّاني) في تصور بيرك: هي من صنع العالم الحديث، نشأت إثر الحراك المجاليّ القائم على فعل المبادلات، والمضاربات المعقّدة والمتعدّدة والمتنوّعة، فيرسم هذان النّموذَجان المورفولوجيّان - اليوم - مباني المغرب المتنوّعة، لكن وفق أيّ تصميم معماريّ؟

44- Berque, J.1958. «Médinas, villeneuves et bidonvilles», Cahiers de Tunisie, 21-22, 1958: 5-42; repris in M - ghreb, histoires... 1974, ch. 7.

في تحليل بيرك: إنّ المدينة العتيقة الّتي تستلهم مرجعيّتها وامتدادها من القرنين الرّابع عشر والخامس عشر؛ اللّذين كانت تسودهما سلطة «الصّلحاء»، تتجمّع - اليوم - تحت ظلال مآذن المساجد السّامقة، تطوّقها الأسوار، وتهيمن على أنسجتها الاجتماعيّة روح الأولياء الممتدّة من العهد المرابطيّ بالمغرب، ولا تزال متغلغلة - إلى يومنا الحالي - في مفاصل الحياة الاجتماعيّة المحلّيّة، هذا النّموذج العمرانيّ يتداخل فيه - اليوم - ويلتحم (من يطلق عليهم بيرك) "الوافدون من الخارج" (les venus d'ailleurs) «بالوافدين من الأقاصي» (les venus d'en hauts)؛ أي أنّ المدينة العتيقة قد تحوّلت إلى بؤرة للتّمازج بين ساكنة المدن الجديدة، الوافدة من مدينة الدّار البيضاء ذات الطّابع الأوروبيّ، المتأثّرة تاريخيًّا بتحوّلات حركة الملاحة، وبين ساكنة العواصم الإسلاميّة الوافدة من مدينة فاس العتيقة السّابحة في عمقها الثّقافيّ والدّينيّ.

إنّ ذلك التّركيب الّذي تتشابك فيه الأنماط المورفولوجيّة العتيقة بالأنماط الحديثة، يعاني اليوم - من وجهة نظر بيرك - من صعوبة بنيويّة مستعصيّة، تتجلّى في صعوبة الاندماج في العصرنة والتّحديث العمرانيّ؛ فالمدن التّاريخيّة - على حدّ قوله - لا تزال «حضرنتها تتشبّث بالبعد العلاماتيّ» (l'urbanisme du signe) الّذي يكون فيه المسجد شاهدًا (علامة) ومنطلقًا لكلّ عمليّة مدّ وجزر اجتماعيّتَين، ثمّ إنّ استمرار ألوان القرابة والرّوابط العائليّة الّتي تشكّل جزءًا مهمًّا من جسم المدينة العتيقة، لا تزال تفضّل البعد الجدوديّ (من الأجداد) الّذي يفرض تعليماته الصّارمة في مجال البناء وامتلاك العقار، ناهيك عن استناد مرجعيّات التّمدّن ومواصفاته الحضاريّة على إحدى الخواصّ الاجتماعيّة للمدينة العتيقة، الّتي - عادة - ما تتلخّص في الانتماء؛ إمّا لفئة الحِرَفيّين، أو فئة التّجّار، أو المنتسبين إلى العلم الشّرعيّ.

إنّ تلك المواصفات المذكورة ترسم - اليوم - مشهدًا من التّزاحم والاكتظاظ، تقع تحت وطئته المدينة العتيقة لحظة تقاطعها وتشابكها مع المدينة الجديدة، ذات الطّابع الرّأسماليّ القائم على البورصة والصّناعة التّكنولوجيّة، وعلى العمران الحديث، إضافة إلى بنايات الصّفيح والمجمّعات العفويّة الّتي تزيد من تعقّد المشهد، وضمن هذا الإطار المدينيّ الهجين الّذي تتداخل فيه المدينة العتيقة بالمدينة الجديدة بـبنايات الصّفيح والمجمعات العفويّة، تنبثق - اليوم - الجموع البشريّة في المدن المغاربيّة، وتخرج لتعمر المكان وتلوّن أطيافه بمختلف صفوفها وصنوفها الاجتماعيّة، فتصبح مؤسّسة البلديّة - في مثل هذا الوضع - غطاء يحتدم في كنفه - بشكل غير مكتمل - القرابات العصبويّة الممتدّة؛ فهي (أي البلديّة) أصبحت - بموجب ذلك التشابك - موطنًا للسّلالات العائليّة، وبناء عليه؛ فإنّ الدّولة سواء كانت عتيقة أو استعماريّة أو حتّى وطنيّة، ما هي - حسب هذا المنطق - سوى ملصقًا من الملصقات ثُبِّت - في النّهاية - بإحدى النّموذجين المورفولوجيّين المذكورَين، ويكمن هنا - اليوم - التّحدّي الأكبر الّذي تواجهه المدن المغربيّة التّاريخيّة والمجتمعات الّتي تقطنها على حدّ سواء.

الخلاصة:

لا يختلف اثنان في أنّ أعمال بيرك الغزيرة تعدّ لحظة فارقة في عمر الأدبيّات الّتي جعلت من المغرب الكبير مادّة رئيسة لها؛ حيث ساهمت كتاباته العميقة في إعادة ضبط البوصلة، وتحرير النّظر والفكر من كثير من الأحكام المسبقة، ومن «الكليشيهات» الإيديولوجيّة المغرضة الّتي ضاعت معها صورة المغرب وحقيقته، وتشوّهت بسبب الشّطحات الّتي جالت في خلد العديد من كتاب الإدارة الكولونياليّة الرّاغبين في الاستحواذ الأبديّ على المنطقة وساكنتها، لكنّ منافحة بيرك عن المغرب وأهله، ومواقفه من الاستعمار وفعله، ودفاعه عن الشّرق وتاريخه، لم يشفع له عند ثلّة من الكتّاب الآكاديميّين العرب المسكونين بهواجس الاستعمار، ثمّ الإبقاء على الرّجل - ولو بصور متفاوتة - ضمن القوائم السّوداء الّتي مارست «الأبوّة المعرفيّة» على المغرب وتراثه خاصّة، ذكر الأستاذ محمّد المجاهيد – حول هذا الموضوع - عيّنة من الكتّاب الّذين سجّلوا توجّسهم من أدبيّات بيرك المغاربيّة، من ذلك؛ الباحث عبد الكبير الخطيبيّ، صاحب كتاب (Penser le Maghreb)[45]؛ الّذي لم يتردّد في تصنيف بيرك ضمن خانة المستشرقين الكلاسيكيّين، متناسيًا أنّ الرّجل عمل على «إقبار دعائم الاستشراق المغرضة والموجّهة، ممّا جعله يلحّ - باستمرار - على ضرورة التّبادل الفكريّ، حتّى لا تبقى سوسيولوجيّة الشّرق؛ بل شرق العلوم الإنسانيّة»[46]، أمّا الكاتب محمد وقيدي؛ فلا يزال يتساءل: «إذا كان يحقّ لنا أن نؤكّد - مع جاك بيرك - لم نعد أمام الاستشراق التّقليديّ؛ بل ولم نعد أمام اهتمام ذي طبيعة استشراقيّة إيديولوجيّة أيضًا»[47]؟

إنّ السّؤال الّذي يطرحه محمّد وقيدي - على وجاهته - لا يستطيع أن ينفي أنّ أعمال بيرك «تصبّ في الاتّجاه الّذي يعمل على إحداث قطيعة إبستيمولوجيّة مع العلم الاستعماريّ، في منطلقاته وتصوّراته ومفاهيمه ومناهجه، وقد يعود له الفضل أكثر من غيره في زعزعة المبادئ العامّة الّتي يقوم عليها الفكر السّوسيولوجيّ الغربيّ»[48].

في الواقع: ثمّة طيف من الكتّاب العرب، لا يستسيغ كثيرًا أن يكون الشّأن العربيّ موضوعًا للدّراسة والبحث من قبل الأجانب الغربيّين، اللّهم إلّا إذا كان ذلك على سبيل الثّناء والمدح لمآثر العرب ومحاسن

45- A. Katibi: Penser le Maghreb, SMER, Rabat, 1993.

46- حسن المجاهيد، سوسيولوجيا العالم العربيّ لدى بيرك، مراكش- المغرب، الطّبعة الأولى، 2012م، ص 183. العبارة الأخيرة «شرق العلوم الإنسانيّة»: نقلها المؤلّف عن بيرك في كتابه «Les Arabes d'hier à demain».

47- حسن المجاهيد، (نقلًا عن) محمّد وقيدي، العلوم الإنسانيّة والإيديولوجيا، منشورات عكاظ، المحمّديّة، 1988م، ص ص 181- 222.

48- المرجع نفسه، ص 198.

الشّرق، ويتصوّر أنّ ثمّة «امتياز إبستمولوجيّ ما للأهليّ»[49] على حساب الأجنبيّ، في إدراك ما خفي من معنى، وما تشكّل من روح جماعيّة وذاكرة محلّيّة!

إنّ هذه النّظرة الأحاديّة تتغذّى على تصوّر إيديولوجيّ مسبَق، تتحكّم فيه «الوطنيّة المنهجيّة» الّتي هي - حسب تعبير الأستاذ عبد الرّحمن موسوي - (في تحدّثه عن الجامعة الجزائريّة)، «تقارب بين الإبستيميّة وبين الحدود الوطنيّة، فلو تحدّثنا - على سبيل المثال - (يقول ع. موسوي) عن التّاريخ؛ فإنّ الصّحافة لا تفتح أعمدتها للمؤرّخين الفرنسيّين أو الأوربيّين، إلّا إذا تحدّثوا عن مواصفات التّاريخ الجزائريّ، لذلك؛ يُعطى لهم الضّوء الأخضر ليدلوا بشهاداتهم وأفكارهم، وهذا بحكم أنّهم تخصّصوا في الشّأن الجزائريّ، ونفس الخطّ يتواصل ويستمرّ مع الأجيال المتعاقبة؛ فالطّلبة لا يشتغلون إلّا من داخل الحدود، ما يعني؛ أنّ الجامعة الجزائريّة لم تنتج بعد من يشتغل - على سبيل المثال - على تاريخ فرنسا»[50].

انطلاقًا من هذه الاعتبارات: هل يمكن وصم الإنتاج الأجنبيّ بالحيف وعدم النّزاهة؟ وفي المقابل؛ هل يمكن وصم العمل الوطنيّ بالمصداقيّة والأمانة؟ إنّ الخوض في مثل هذا السّؤال - واقعيًا - يتطلّب بحثًا مستقلًا بذاته، لذلك اكتفينا - هنا - برجل الضّفّتين كنموذج للتّقاطع بين المعرفة المحلّيّة والمعرفة الكونيّة، الّذي كوّن لنفسه مسارًا مختلفًا يقطع الصّلة بالمركزيّة الإثنيّة (ethnocentrisme) من جهة، والوطنيّة المنهجيّة من جهة أخرى، وربّما ما ذكره إدوارد سعيد عن جاك بيرك وصديقه ماكسيم رودنسون في هذا المعنى قد يفي بالغرض، لقد ذكر سعيد أنّ الرّجلين «قد حرّرا نفسيهما من السّترة العقائديّة المُفصّلة القديمة (بتصرّف)، فتدريب جاك بيرك وماكسيم رودنسون يقف على قدم المساواة مع أكثر الأنماط الموجودة صرامة وانضباطًا، غير أنّ وعي الذّات المنهجيّ لديهما يمنح الحيويّة لتوجّهاتهما، فإذا كان الاستشراق معتدًا بنفسه تاريخيًا، معزولًا بمناعته، مفرطًا في الثّقة، وضعيًا بطرائقه ومقدّماته؛ فإنّ إحدى الطرائق الّتي يستطيع المرء بها أن يفتح نفسه لما يدرسه في الشّرق أو عن الشّرق؛ هي أن يخضع منهجه - انعكاسيًا - للتّحليل النّقديّ المتقصّي، وهذا ما يميّز بيرك ورودنسون، كلّ بطريقته الخاصّة، فما يجده المرء في عمليهما؛ هو - دائمًا وقبل كلّ شيء - حساسيّة مباشرة للمادّة الماثلة أمامها، ثمّ امتحان ذاتيّ مستمرّ لمنهجهما وممارستهما، ومحاولة ذائبة لإبقاء عملهما قادرًا على الاستجابة للمادّة، لا لتّصوّر مذهبيّ مسبق»[51].

49- حسن مجاهيد (نقلًا عن) محمّد جاسوس، «العقلانيّة والمشروع العربيّ»، الوحدة، المجلس القوميّ للثّقافة العربيّة، الرّباط- المغرب، العدد 26-27، 1986م، ص 219.

50- ABDERRAHMANE MOUSSAOUI «L'Université algérienne ente le local et le globale: regards emphat - ques», Djamel Guerid (S/D) 2014, Repenser L'Université, Algérie, Arak Edition, p. 21.

51- إدوارد سعيد، (نقلًا عن) حسن المجاهيد، الاستشراق، المعرفة، السّلطة، الإنشاء، نقله إلى العربيّة: كمال أبو ديب، الطّبعة الأولى، مؤسّسة الأبحاث العربيّة، بيروت- لبنان، 1981م، ص 47.

ما نفهمه من هذا الاقتباس، ونسجله هنا على سبيل الخلاصة والختم لهذه الورقة: أنّ جاك بيرك ليس فقط ذلك الباحث المتمرّس الّذي وهب نفسه - دون كلل ولا ملل - لخدمة المعرفة السّوسيولوجيّة والإنثروبولوجيّة، في المغرب والمشرق على حدّ سواء؛ إنّما يعدّ - أيضًا - مرآة عاكسة ألقت بظلال العالم العربيّ على الضّفّة الأخرى، ودعت - بذلك - إلى تجسير المسافة وتكثيف التّبادل، والاستفادة من الإرث الإنسانيّ من غير هيمنة ولا استغلال، فهل يوجد - بعد كلّ هذا - شكّ في أنّ إنجازات الرّجل وإضافاته العلميّة لم تكن في صالح المعرفة السوسيولوجيّة والإنثروبولوجيّة - عامّة - وفائدة العالم العربيّ والمغاربيّ خاصّة!

المراجع

المراجع العربيّة:

- **المجاهيد حسن، سوسيولوجيا العالم العربيّ لدى بيرك، مرّاكش - المغرب، الطّبعة الأولى، 2012م.**
- **الدّهّان محمّد، "جاك بيرك والمغرب"، إضافات، العدد السّابع، صيف/ 2009م.**

المراجع الأجنبيّة:

- Akar Mairies, 1980, «Entretiens avec», ARABIES. Paris, Stock, édit augmentée.
- Ben Salem .L ; Jaque Berque (1910 - 1995) cahiers de Tunisie N: 1653 trim.1993,pp.12 - 13.
- Berdouzi Mohamed, Structure du Maroc pré - Colonial: Critique du Robert Montagne, (Mémoire pour l'obtention du diplôme des études supérieures es - sciences politiques), Edition La croisée des Chemins, Rabat, Novembre 1981.
- Berque, J, 1949, Ville et université: Aperçu sur l'histoire de l'École de Fès, Paris, Sirey, 1949 (tiré à part de la Revue Historique de Droit Français et Étranger, 26: 64 - 1 17) ; repris in Maghreb, histoire. 1974, ch. 3: 35 - 47.
- Berque Jacques,1954, «Qu'est - ce qu'une tribu nord - africaine ?» in: Hommage à Lucien Febvre, Paris, 261 - 271 (rééd. in Maghreb, histoire, société, Alger - Gombloux, Sned - Duculot, 1974). P.261.
- Berque, J.1955. Structures sociales du Haut - Atlas, Paris, PUF, 472 p. ; 2e édition augmentée d'un «Retour aux Seksawa» (en coll. avec Paul Pascon), ibid., 1978, 520p. (Bibliothèque de sociologie contemporaine).
- Berque Jacques. Cent vingt - cinq ans de sociologie maghrébine. In: Annales. Économies, Sociétés, Civilisations. 11e année, N. 3, 1956. pp. 296 - 324; doi: 10.3406/ahess.1956.2554. http://www.persee.fr/doc/ahess_0395 - 2649_1956_num_11_3_2554. p. 305.
- Berque, J.1958. «Médinas, villeneuves et bidonvilles», Cahiers de Tunisie, 21 - 22, 1958: 5 - 42; repris in Maghreb, histoires... 1974, ch. 7.
- Berque, J.1972. «Fès ou le destin d'une médina», Cahiers internationaux de Sociologie, LI, 1972: 5 - 32; repris in De L'Euphrate. .. 1978, 1: 380 - 415.
- Berque, J. 1975, «Entrée dans le Bureau arabe» in Nomades Vagabonds, Paris, UGE, 113 - 139 (Causes communes 2, coll. 10/18); repris comme «Premier poste» et «Agir, rêver», in 1989, chapitres 3 & 4. P. 116.
- Berque, 1978. Structures Sociales du Haut - Atlas. 2éme éd. revue et augmentée. Paris: Presses universitaire de France. (Sociologie d'aujourd'hui).
- Berque. J, 1989, Mémoire des deux rives, Paris, Seuil. p.114.

- Berque. J, 2011, OPERA MINORA «Islam populaire et Islam purifié». Compte rendu de Ernest Gellner, Muslim Society, Times Literary Supplement, 11December, 1981.
- De Slan W. Mac Guskin (TRAD), (1801 - 1878) , Les Prolégomènes d'Ibn Khaldoun (732 - 808 de L'Hégire) (1332 - 1406 de J. C) (1863) deuxième partie. Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1936.
- Frémeaux Jacques. Missionnaire en burnous bleu. In: Revue du monde musulman et de la Méditerranée, n°83 - 84, 1997. Enquêtes dans le bibliographie de Jacques Berque - Parcours d'histoire sociale. pp. 67 - 73; doi: 10.3406/remmm.1997.1772 http://www.persee.fr/doc/remmm_0997 - 1327_1997_num_83_1_1772.
- LEFEBURE Claude, 1971, Le cinquième, la tribu, l'os, le foyer: introduction à l'étude de la segmentation sociale chez les Ayt cAtta, maîtrise spécialisée d'ethnologie, Université René Descartes - Paris V. p. 20.
- Moussaoui Abderahmanane «L'Université algérienne ente le local et le globale: regards emphatiques», Djamel Guerid (S/D) 2014, Repenser L'Université, Algérie, Arak Edition, p. 21.
- Katibi. A: Penser le Maghreb, SMER, Rabat, 1993.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017